العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

شعر عبد الرحمن بن حسان الأنصاري

الأغراض والخصائص الفنية واللغوية

دكتور محمد المجوري
كلية الآداب - القنيطرة - المغرب

لقد كان الشعر في العصر الجاهلي ديواناً للعرب، سجلوا فيه أيامهم وأنسابهم وآمالهم، ومنتهى ما كانوا يطمحون إليه في السلم والحرب، ولم يتوقف الشعر عن هذا الدور بمجيء الإسلام وانشغال المسلمين بالدعوة ونشر تعاليم دينهم، بل ظل الشعراء ينظمون ويعنون بشعرهم من ناحية الجودة الفنية مثل الجاهليين. وقد اعتبر الأصمعي، وهو أحد علماء اللغة والشعر، هذه المرحلة فترة ضعف الشعر من الناحية الفنية، لأن الشعر ـ في رأيه ـ بابه الشر، وهو نقيض ما دعا إليه الإسلام من تسامح ومثل وفضائل. قال: «طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان فحلاً في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير، من مراثي النبي ﷺ

وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم، لان شعره»[1].

هذا الرأي فيه تعميم شامل لضعف أغراض الشعر، وإن كان الأصمعي قد حدد غرضاً معيناً هو الرثاء، وشاعراً هو حسان. لقد جعل الأصمعي الجودة الفنية في الشعر، والمقصود بها هنا التصوير البديع، والمعاني الطريفة، والصياغة المحكمة، في أبواب الشر، أي في الحروب والفتن والهجاء المقذع. أما أبواب الخير وما تتضمن من فضائل ومثل وأخلاق فهي لا تصلح للشعر من ناحية الجودة الفنية. وهذا الرأي يرد من عدة اعتبارات، لأن شعر المراثي الذي جعله الأصمعي دليلاً على ضعف شعر حسان خاصة، غرض لا علاقة له بالخير أو الشر، لأنه تعبير عن شدة الألم من فقد عزيز أو قريب، إنه إحساس وشعور يخلوان من التكلف والتصنع، وهو من الأغراض القديمة في الشعر العربي، وقد جاءت قصائد بعض الشعراء فيه مثالاً للجودة الفنية، وصدق العواطف، وشدة لوعة الفراق، مثل أشعار الخنساء. وكذلك الأغراض التي تدخل في باب الشر لم تتوقف، فقد وجدت أسباب ودواع لإبقائها، عقدية وسياسية وحزبية وقبلية؛ ففي مرحلة الدعوة الإسلامية شجع الرسول عليه السلام شعراءه للرد على شعراء قريش الذين آذوه بسيوفهم وألسنتهم الحادة. ذكر أصحاب السيرة أن النبي «لما قدم المدينة، تناولته قريش بالهجاء، فقال لعبد الله بن رواحة: ردّ عني فذهب في قديمهم وأولهم، فلم يصنع في الهجاء شيئاً، فأمر كعب بن مالك، فذكر الحرب كقوله:

نصل السيوف إذا قصرنَ بخطونا قدما، ونلحقها إذا لم تلحق

فلم يصنع في الهجاء شيئاً، فدعا حسان بن ثابت فقال: أُهجهم، وأنت أبا بكر يخبرك، أي بمعائب القوم»[2].

والهجاء الذي أمر به الرسول عليه السلام ليس هجاء الفحش بدليل قوله لحسان: «اهجهم كأنك تنضحهم بالنبل، والنضح بالنبل هو رشق القوم رشقاً

---

(1) الموشح: 69.

(2) طبقات فحول الشعراء: 1/ 216 ـ 217.

متفرقاً، وهي دعوة إلى تجنب الفحش، وهذا من أدب الإسلام. فكان حسان بن ثابت شاعر الهجاء، وشاعر الرسول عليه السلام، يرد على أعدائه بسهام مصمية «وبحق سمي حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يناضل عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب، رامياً لهم جميعاً بسهام مصمية»[3].

وسيصل هذا الغرض إلى ذروته في معاني الإقذاع والفحش في عصر بني أمية عند شعراء النقائض، جرير والفرزدق.

في هذه البيئة الإسلامية، بيئة الشعر والفصاحة والبلاغة، ونفحات تعاليم الإسلام من الكتاب وسنة رسول الهدى، نشأ وترعرع عبد الرحمن بن حسان الأنصاري. أما أمه فهي سيرين التي أهداها الرسول عليه السلام لحسان، وهي أخت مارية القبطية زوج رسول الله ﷺ. وقد ولد في زمن النبي عليه السلام، وتوفي بعد المئة وكانت نشأته في يثرب، وهي بيئة الشعر في العصر الجاهلي والإسلامي حيث تميزت على بقية القرى العربية. قال ابن سلام حين ذكر شعراء القرى العربية:

«وهي خمس: المدينة، ومكة، والطائف واليمامة، والبحرين. وأشعرهن قرية المدينة»[4].

وعرف آل حسان في هذه البيئة بالشعر. قال المبرد: «وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان»[5] وقد ظهرت موهبة عبد الرحمن الشعرية في سن مبكرة. روي أنه جاء إلى أبيه يبكي، وهو صبي. فقال له أبوه: مالك؟ فقال: لسعني طائر. فقال له: صفه يا بني. فقال: كأنه ملتف في بردي حبرة، وكان لسعه زنبور. فقال حسان: قال ابني الشعر ورب الكعبة[6].

---

(3) العصر الإسلامي: 79.

(4) طبقات فحول الشعراء: 1/ 215.

(5) الكامل: 1/ 264.

(6) المصدر نفسه: 1/ 263 ـ 264، وأسرار البلاغة: 167.

وذكر مؤرخو الأدب أنه اشتهر بالشعر في زمن أبيه، وهو الذي تعهده بالتثقيف والصقل والتهذيب حتى اكتملت شاعريته.

أغراض شعره[7]

لا ريب أن البيئة التي نشأ فيها عبد الرحمن بن حسان كان لها دور في تفتق شاعريته، فهذه البيئة كانت تعبق بنفحات هدي الإسلام وتعاليمه السمحاء التي جاءت في القرآن وأحاديث رسول الهدى، وكان بجانب هذه النفحات العطرة شعر وبلاغة وفصاحة وبيان، وشعراء ينظمون في المدح والهجاء والفخر والعتاب والمنافرة والغزل والحكمة والوصف، ومتأدبون يروون الشعر في المجالس والأندية والأسواق الأدبية؛ فكانت البيئة بحق بيئة الشعر والأدب. ومن هنا وجدنا عبد الرحمن يجول في حلبة الشعر مع شعراء عصره، يفخر ويهجو ويمدح ويعاتب ويتغزل ويصف ويقول الحكم البالغة. إلا أن هذه الأغراض كانت تتفاوت كثرة وقلة في شعره، حيث كان بعضها غلاباً عليه مثل الهجاء لما عرف عنه من ميل إلى الشر وإذاية الناس، وما كان يتصف به من كبر ونخوة واستعلاء، فكأنه كان بهذا الغرض يشبع رغبة دفينة في أعماقه. قال الزبير بن بكار: «وكان عبد الرحمن شريراً، هجاء للناس، مبتدياً لهم. وكان ذا كبر ونخوة».

وقد ذكر مؤرخو الأدب أن بداية تفتق شاعريته كانت في غرض الهجاء خاصة[8]، وكان يفخر ببراعته فيه ويشير إلى دور أبيه حينما كان يرد على

---

(7) لم يصلنا ديوانه، وما بين أيدينا هو مجموع شعره، جمعه وحققه الدكتور سامي مكي العاني. وهذه الأشعار تحتاج إلى المراجعة والتدقيق، فقد وجدت أبياتاً كثيرة مكسورة أشرت إلى بعضها في هذا البحث. وكما ضاع ديوانه ضاعت أيضاً أخباره مع شعراء عصره التي جمعها العلماء، مثل كتاب «أخبار عبد الرحمن بن حسان» للزبير بن بكار.

(8) قيل: إنه لما أراد أن يهاجي النجاشي، قال له أبوه: أنشدني من شعرك فإنك تهاجي النجاشي أشعر العرب. فلما أنشده بعض أشعاره وجدها ضعيفة فضربه وقال له: اذهب وقل ثلاث قصائد، فلما عرض عليه تلك القصائد قال له: يا بني اذهب فابسط الشر على ذراعيك.

المشركين بمعان كانت تؤلمهم، وتقض مضاجعهم. قال يخاطب عبد الرحمن بن الحكم:

وكان أبي لكم في الكفر نكلا وفي الإسلام كنت لكم علاطا[9]

كما عد نفسه من فحول شعراء الإسلام مثل أبيه:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت[10]

ولا جدال في أن أباه كان من فحول شعراء الجاهلية والإسلام، وقد عده ابن سلام أشعر شعراء المدينة. أما عبد الرحمن فلم يذكره مع الفحول، وإنما أشار إليه في موضعين، الأول حينما ذكر أنه غلب النجاشي في الهجاء[11]. والثاني في كونه استعلى يزيد بن معاوية[12]. كذلك لم نجد المحدثين قد عنوا بدراسة حياته وشعره مثل عنايتهم بأبيه. والسبب في ذلك واضح، وهو أن حساناً أحد فحول الجاهلية والإسلام، وأنه أبرز شاعر في مرحلة الدعوة الإسلامية.

وننظر الآن في أغراض شعره لنرى مدى مقدار تمكنه من القوافي كما ادعى.

غرض الغزل:

لم يكن عبد الرحمن من شعراء الغزل، ولم يكثر منه في شعره، لأنه لم يكن بطبعه ميالاً إليه، كما أنه لم يرتبط بصاحبة تفجر عواطفه ومشاعره نحو المرأة. وقد وجدنا في مجموع شعره مقطوعتين يشبب فيهما برملة بنت معاوية، وهما من أجود ما قيل في شعر الغزل، لتوفرهما على الخصائص الفنية التي

---

(9) شعره: 29. النكل: اللجام. والعلاط: حبل يجعل في عنق البعير.

وفي الشطر الأول من البيت خرم ـ بالراء ـ وهو حذف أول متحرك من الوتد المجموع في أول البيت.

(10) شعره: 17. وزيد بن ثابت هو الصحابي الجليل، كان من كتاب الوحي.

(11) طبقات فحول الشعراء: 1/ 150.

(12) نفسه: 1/ 461.

تطلب في هذا الغرض، وهي الإحساس الصادق، والشعور الفياض، والعاطفة المتأججة بين المحبين، مثل قوله:

رمل هل تذكرين يوم غزال ... إذ قطعنا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين ـ عمرك الله ـ هل شيءٌ ... وإن جل، سوف يسليك عني
أم هل أُطمعت منك يا بن حسا ... ن كما قد أراك أطمعت مني[13]

وقوله:

ولقد قلت إذ تطاول ليلي ... وتقلبت ليلتي في فنون
ليت شعري أمن هوى طار نومي ... أم براني ربي قصير الجفونِ[14]؟

مثل هذه المعاني المتأججة بنيران الشوق والغرام لا تصدر إلا من عاشق ولهان، قد تيمه الحب، وجعله يتقلب في فنون من المعاناة في ليل لم تغمض فيه عيناه بعد ما طال حتى كأنه بلا صباح. ولكن هذه الأبيات مع أبيات أخرى لم ينظمها للتعبير عن إحساس صادق، وعواطف جياشة نحو رملة، إذ لم تكن تربطهما أية علاقة تجمع بين محبين. والمؤرخون يذكرون أنه نظم المقطوعتين على سبيل التعريض بمعاوية ومهاجمته عن طريق الغزل، وهذا ما جعل يزيد بن معاوية حينما سمع هذا الشعر أن يذهب إلى أبيه مغتاظاً ويخبره لعله يؤدب عبد الرحمن، لكن معاوية المعروف بالحلم والتؤدة قال له: وماذا قال؟ قال: يقول:

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغو ... اص ميزت من جوهر مكنونِ

فقال معاوية: صدق. قال يزيد، ويقول:

وإذا ما نسبتها لم تجدها ... في سناء من المكارم دونِ

قال معاوية: صدق. ثم قال يزيد، ويقول:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ... ـراء تمشي في مرمر مسنونِ

---

(13) شعره: 59.

(14) شعره: 60.

قال معاوية: كذب.

ولما لم ير يزيد من معاوية ما أراد أمر الأخطل بهجاء الأنصار، فقال فيهم:

ذهبت قريش بالمكارم والعلى والمؤم تحت عمائم الأنصار[15]

ومما يدل على أن عبد الرحمن لم يكن صاحب غزل يستميل به النساء أنه كان على علاقة هو والأحوص مع امرأة في المدينة اسمها سلامة، وكانت جميلة وأديبة تقرأ القرآن وتقول الشعر وترويه، فيقال إنها علقت الأحوص وصدت عنه، وفي ذلك يقول:

أرى الإقبال منك على خليلي ومالي في حديثكم نصيب[16]

وذكر لنا في شعره أيضاً أنه كان لا يلين لناعم، ولا يصل من قطعه:

ألم تر أني لا ألين لناعم ولا أبتدي رب القطيعة بالوصل[17]

والعاشق الولهان ينبغي أن يبدي التذلل والانكسار لحبيبته، ويصل من قطعه حفاظاً على الود والمحبة. ولو كان فيه شيء من هذا لعلقته سلامة، لاسيما أنها مرأة أديبة وشاعرة، ولكانت بينهما مطارحات شعرية مثلما نجد في أشعار حميد بن ثور وليلى الأخيلية.

وإن من يقول مثل هذه المعاني الفاحشة في الغزل:

سائلا مية هل نبهتها آخر الليل بعرد ذي عجر

فتبازت فتبازخت لها جلسة الجازر يستنجي الوتر[18]

لا يمكن أن تقوم بينه وبين امرأة علاقة تفجر عاطفة الغزل الصادق.

وعبد الرحمن إذا أوصى امرأته بما ينبغي لها أن تفعله بعد موته فإنه لا يوصيها إلا بهذا الشعر:

---

(15) انظر الخبر في: رفع الحجب: 4/ 1146 ـ 1147.

(16) شعره: 15.

(17) نفسه: 47.

(18) نفسه: 27.

لا تنكحي إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا
وكوني حبيساً أو لأروع ماجد إذا ضن أغساس الرجال تبرعاً[19]

بينما العواطف الصادقة، والحب الخالص الذي يجمع بين الزوجين يقتضي أن يوصيها بالحفاظ على العهد والحب والمودة في حياته وبعد مماته. ولولا وجود المقطوعتين اللتين قالهما في رملة بنت معاوية في مجموع شعره لذهبنا إلى القول بأن الرجل كان جلفاً، غليظ القلب، لا تعرف المشاعر الرقيقة، والعواطف الجياشة سبيلاً إلى قلبه[20].

غرض الفخر:

الفخر من أغراض الشعر الجاهلي، كان الشاعر يفخر بالأنساب والأيام وبفرسان القبيلة وأجوادها. وقلما نجد شاعراً جاهلياً قد خلا ديوانه من هذا الغرض. وحينما جاء الإسلام جعل معاني الفخر في تقوى الله والبر والتمسك بالعقيدة التي جعلت الناس سواسية كأسنان المشط؛ لكن هذه المبادئ لم تحدث أثرها في كثير من الشعراء مما جعل المعاني الجاهلية تظل بارزة في أشعارهم، لأن فخر الفرد بنفسه وآبائه وعشيرته ظاهرة نفسية وتاريخية واجتماعية يصعب التخلص منها دفعة واحدة، ومع ذلك فإنا نجد النهي عنه كان قوياً في الكتاب والسنة؛ فهذا رجل يفتخر بآبائه أمام الرسول عليه السلام بقوله:

إني امرؤ حميري حين تنسبني لا من ربيعة آبائي ولا مضرِ

فيقول له النبي ﷺ: «ذلك والله ألأم لجدك، وأقل لخدك، وأفلُّ لحدك، وأقل لعدك، وأبعد لك من الله ورسوله»[21]. وقد وجدنا عبد الرحمن بن حسان

---

(19) نفسه: 31. الأروع: الجميل الشجاع. أغساس: جمع غس، وهو الضعيف اللئيم.
والبيت الأول فيه خرم ـ بالراء ـ ونسب إلى هدبة بن خشرم العذري، انظر: الكامل: 4/ 86.

(20) والمقطوعة التي طالت أبياتها في غزله برملة، نسبت لأبي دهبل الجمحي. وقالوا: إنه نظمها في عاتكه بنت معاوية حين حجت.
انظر رفع الحجب: 4/ 1444، وتخريجها في مجموع شعره، ص59.

(21) العمدة: 1/ 555.

في هذا الغرض يجمع بين المعاني الجاهلية والمعاني التي دعا إليها الإسلام، وكأنه بذلك كان يرضي حاجة عميقة التأثير في نفسه، ويستجيب في نفس الآن لما دعت إليه العقيدة. ومما فخر به بنفسه وآبائه على طريقة الجاهليين قوله:

ولكنني فرع سقته أرومةٌ كذاك الأروم تنبت الفرع في الأصل[22]

وقوله:

أنا ابن مزيقيا عمرو نماني على أشراف أطواد الجبال

ومن ماء السماء ورثت جداً فدوني كل فخر واختيال[23]

وبجانب هذا الفخر العارم بالأنساب على طريقة الجاهليين نجد المعاني الإسلامية التي يذكر فيها دور قومه في نصرة الرسول ﷺ، وشدة بلائهم في الغزوات، وفي حرب الردة على عهد الخليفة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، كقوله:

لأن محمداً فينا فلسنا، وإن جلت مصيبتنا، نبالي

فسائل عن بلائهم ببدر وقد يشفى العمى عند السؤال

غداة رموا بجمعهم لؤيا وكبشهم يزيف إلى الصيال[24]

فكانوا كالهشيم يشب فيه حريق شبه لفح في الشمال

وسائل عنهم الأحزاب لما هجمناهم فخرت كالتلال[25]

وفي معركة حنين ذكر بلاء قومه واستجابتهم لنداء الرسول عليه السلام لنصرته وحمايته فقال:

فسائل عن حنين حين ولت جموع المسلمين على توال

وناداانا بنصرتنا مناد فنبنا نوب آلفة الفحال

---

(22) شعره: 47.

(23) نفسه: 38.

(24) لؤي، من آباء قريش.

(25) شعره: 40 والأحزاب: جنود الكفار، وهم قريش وغطفان وبنو قريظة.

وما فينا غريب من سوانا نؤم إلى النبوة كالجمال

فوافينا الرسول فقال شدوا بعون الله واسمه ذي الجلال

فما صبروا لشدتنا، ولكن تولوا مجهضين عن القتال[26]

وقومه الأنصار عرفوا بشدتهم وإقدامهم في الحروب، ونصرتهم للرسول عليه السلام، وقد أعطوا بذلك العهود والمواثيق. قال سعد بن معاذ للرسول ﷺ قبل بداية معركة بدر: «فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»[27].

وفي حرب الردة حيث واجه قومه بشدة وضراوة جموع المرتدين، وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب، يقول:

وقدنا لليمامة كل طرف أقب مقلص نهد طوال[28]

يريد لقاء كذاب لئيم مسيلمة المصر على الضلال

ففاجأناه تحت النقع شعثا كأسد غامرات تحت الظلال[29]

وحاسيناهم جرعا تؤدي على كره الحياة إلى الزوال[30]

هذا الفخر برغم ما توجد فيه من سمات قبلية فإن موقف قومه من الدفاع عن الإسلام فيه دعوة للفخر بنصرتهم للعدل والفضيلة والأخلاق المتمثلة في مبادئ الإسلام، وفي نصرة من دعا إلى هذه المبادئ وهو رسول الهدى عليه السلام.

---

(26) نفسه: 41.

(27) السيرة: 2/ 267.

(28) الطرف: الفرس الكريم.

(29) الشطر الثاني من البيت مكسور.

(30) شعره: 44.

غرض الهجاء:

هذا الغرض هو الذي برع فيه عبد الرحمن، إذ كان شاعراً هجاءاً في عصره، وقد غلب النجاشي في الهجاء خاصة، وكان أشعر العرب، ولهذا خاض عبد الرحمن في هذا الغرض، وهجا الشعراء وغير الشعراء، وكان مبتدياً لهم، كما قال الزبير بن بكار، يقذع ويفحش في هجائه بمعان نهى عنها الإسلام وتوعد قائلها بالعقاب، وكان الخلفاء والولاة يقيمون الحد على الشعراء الهجائين، وهذا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حبس الحطيئة لمجرد قوله في الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وكان عمر قد استشار حسان بن ثابت في معنى البيت ـ وهو يعلم من ذلك ما يعلم حسان ـ ولكنه أراد الحجة على الحطيئة، فقال حسان: ذرق عليه[31].

وعبد الرحمن كان من الشعراء الذين يميلون إلى الشر وإذاية الناس، والإمعان في الشتم الفاحش، وهذا ما جعل الخليفة معاوية يأمر واليه على المدينة بجلده مع عبد الرحمن بن الحكم حينما هاج الشر بينهما وأفحشا في الهجاء. وكان عبد الرحمن في هجائه يركز على العيوب والمثالب القبيحة التي تظهر المهجو خسيساً ولئيماً جبلة وطبعاً، فهو لا يستطيع التخلص من مثالبه. قال في هجاء عبد الرحمن بن الحكم.

قوم إذا راهنوا عن مجدهم جعلوا تحت العجاجة للمسبوق جلبابا

شبانكم شر شبان علمتهم قصراً وطولاً وأعراضاً وأحساباً

وشمطكم شر شمط الشيب مخبره وشرهم في ثنا أمر إذا غابا

يوصي أوائلهم بالقول آخرهم وشر من ذاق طعم النوك من شابا[32]

---

(31) طبقات فحول الشعراء: 1/ 116 الذرق: هو ما يلقيه الطائر من ذي بطنه.

(32) شعره: 16.

والذل والاحتقار والمهانة هي السمة التي تميز المهجو، ولولا وجود قومه في الحكم لكان مغموراً كعظم حوت في مظلم الغمرات، أو كوتد يضرب رأسه بالحجر، وهي صورة المهجو في حالة من التحقير المبالغ فيه:

ولولاهم لكنت كعظم حوت هوى في مظلم الغمرات داج

وكنت أذل من وتد بقاع يشعث رأسه بالفهر واج[33]

وإمعانه في الهجاء الفاحش لا يقتصر على الأحياء منهم بل يشمل الأموات أيضاً الذين هم مسبة وعار على قومهم مثل الأحياء:

وبنو أبيك سخيفة أحلامهم فحش النفوس لدى الجليس الزائر

جبن القلوب، لدى الحروب أذلة ما يقبلون على صفير الصافر

وسيوفهم في الحرب كل مفلل ناب مضاربه ودان دائر

أحياؤهم عار على أمواتهم والميتون مسبة للغابر[34]

فهل كان عبد الرحمن بهذا الهجاء الفاحش يتم رسالة أبيه التي سفه فيها أحلام قريش وهم كفار؟ أم هو الطبع الذي يحمله على إذاية الناس؟ ومهما كان الدافع فإنه يبرر هجاءه لهؤلاء القوم بأنهم أشرار جبلة وطبعاً، ولم يؤثر الإسلام فيهم:

كان أبي لكم..... (البيت).

غرض الوصف:

الوصف غرض شائع في الشعر العربي القديم، إذ كانت البيئة الصحراوية برمالها وحيواناتها، وسكون ليلها، وحر نهارها، ومجاهل طرقها، وما عرفت هذه البيئة من صراع دائم جعلت الإنسان يتفنن في صنع وجلب الدروع والرماح والسيوف، والعناية بالخيول الأصيلة؛ كل ذلك كان مادة خصبة لغرض الوصف

---

(33) نفسه: 18.

(34) نفسه: 25.

الذي أبدع فيه الشاعر الجاهلي، فجاء شعره عبارة عن مشاهد متحركة ونابضة بالحياة، تعبر عن حس دقيق بجمال الطبيعة وسر عظمتها. وقد نهج الشعراء الإسلاميون هذا النهج، وكان منهم من عشق الصحراء فظل يتغنى بجمالها مثل الشاعر ذي الرمة الذي خلد لنا في شعره مشاهد بديعة.

أما عبد الرحمن فلم يكن من الشعراء الوصافين الذين تستهويهم الطبيعة الصامتة والمتحركة، وهذا ما جعل هذا الغرض يقل في شعره، بل يكاد يكون منعدماً باستثناء مقطوعة بديعة يصف فيها الخيل، وهي قوله:

بأجرد مثل قضيب الأشا ... ء، مستأنس نشق هيكل[35]

أغرّ الثنايا، أحمّ اللثا ... ت، تمنحه سوك إسحل[36]

عريض المقص، طويل الضلوع، ... خفوق الحشا، جُرشع المركل[37]

إلى فخذ رابئ لحمها ... محملجة الفتل كالقُنْقُل[38]

وساقان كعباهما أصمعا ... ن، سدا له خلل المفصل

طويل الذراع، له مرفق ... ألص إلى الزور لم يفتل[39]

كأوظفة الفالج الموصلي، ... فلا هو ريض ولم يرحل[40]

كأن حماتيهما أرنبان ... تقبضتا خيفة الأجدل[41]

على ربلتين كظهر النقا ... من العقد الهائر الأهيل[42]

---

(35) الأجرد: الفرس القصير الشعر. الأشاء: جمع أشاءة، وهي النخلة القصيرة. الهيكل: الفرس الطويل.

(36) الإسحل: شجر يتخذ منه المساويك.

(37) المقص: عظم الصدر. الجرشع: العظيم.

(38) المحملج: المفتول بشدة. القنقل: المكيال الضخم.

(39) ألص: متقارب. الوظيف: مستدق الذراع والساق من الخيل.

(40) الفالج: الجمل الضخم، ذو السنامين.

(41) الحماة: عضلة الساق في الفرس.

(42) شعره 48، 49. والربلة: باطن الفخذ. النقا: القطعة من الرمل.

هذه المقطوعة من أبدع ما قيل في وصف الخيل، فالشاعر لم يترك عضواً واحداً يستحب وجوده في الخيل الأصيلة الكريمة إلا ذكره، وكأنه أراد أن يعطينا نموذجاً للفرس العربي الأصيل. وهذا الوصف الدقيق يدل على أن عبد الرحمن كان يمكن أن يكون من الشعراء الوصافين، لكنه لم يعن به في شعره. وقد وجدنا في مجموع شعره أبياتاً قليلة نظمها في وصف معاناته وهمومه، إلا أنه لم يترك العنان لسجيته حينما كان يواتيه الطبع في هذا الغرض، ولو فعل لأمتعنا بوصف بديع مثل قوله:

تطاول ليلى من هموم، فبعضها قديم، ومنها حادث متـرشح

تحن إلى عرق الحجون، وأهلها منازلهم منا سليل وأبطح[43]

فما الذي منعه من الاسترسال في التغني بهمومه غناء شجياً، ووصف معاناته القديمة والحادثة، وتصوير خلجاته النفيسة؟ لقد اكتفى بهذين البيتين ونحن نحس أن في أعماقه بركانا ملتهباً بالمشاعر الفياضة، والأحاسيس المتدفقة. وكذلك نحس هذا الإحساس حينما نقرأ قوله:

أرق لبرق مستطير، كأنه مصابيح ساعة ثم تلمح

يضيء سناه لي شروري، ودونه بقاع النقيع أو سنا البرق أنزح[44]

فما الذي كان وراء هذا الأرق؟ وأي ذكرى كانت ستفجر مشاعره نحو جبل شروري وبقاع النقيع؟ أشياء كثيرة وراء تلك الإشارات واللمع كان من الممكن أن تحرك دواخله، لكنه وقف عند هذين البيتين، ولم ندر أكانت قريحته الشعرية لا تسعفه في هذا الغرض، أم أن أغراضاً أخرى كانت تشغله؟ وبرغم أن هذه النماذج قليلة فإنها تبين أن شاعريته كانت تتوفر على طبيعة خلاقة في غرض الوصف، لكنه لم يفك عقالها.

---

(43) شعره: 19.

(44) نفسه: 19. والشطر الثاني من البيت الأول مكسور.

غرض الحكمة:

إن الحكم التي وردت في أشعار عبد الرحمن عكست ألواناً من تجاربه في الحياة، وفي سلوك الناس وأخلاقهم ومعاملاتهم؛ كما تجلت فيها دعوة الإسلام التي تحث على الفضيلة والخير والإحسان. وهذه الحكم برغم بساطة مضامينها فإنها تعبر بصدق عن الرؤية المثالية التي كان يطمح إليها أفراد المجتمع لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين سائر الطبقات في ظل ما حث عليه الإسلام من مبادئ اجتماعية وإنسانية مثالية وفاضلة، كقوله:

وإن امرءاً نال الغنى ثم لم ينل صديقاً ولا ذا حاجة لزهيد[45]

وقوله:

وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ولكن أحاظ قسمت وجدودُ

وإن امرءاً يمسي ويصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد[46]

ومن حكمه التي تدل على عمق تجاربه في الحياة وسلوك الناس، وطبعهم المتقلب، وما ينبغي للفرد أن يلتزمه في حياته من سلوك وأفعال وأقوال وممارسات، قوله:

فإن قلت فاعلم ما تقول، فإنه إلى سامع ممن تعادي وناصر

وإنك لا تستطيع رد مقالة سارت وزلت في مسامع آخر[47]

كما ليس رام بعد إطلاق سهمه على رده بعد الوقوع بقادر[48]

وقوله:

ورب امرئ تعتده لك ناصحاً يوليك عمداً سهمه حين يفوق

ومطرح لا تأمل الدهر نفعه تصادف منه مصدقاً حين تزهق[49]

---

(45) نفسه: 21. الزهيد: اللئيم.

(46) نفسه: 22. والبيت الثاني ينسب لأبيه حسان.

(47) الشطر الثاني فيه خرم ـ بالراء.

(48) شعره: 23.

(49) في شعره: «وتصادف...»، ولا يستقيم الوزن بها.

وقد تأمن الشر الذي هو حاضر ويهدى لك الشر البعيد فيطرق[50]

وقوله:

إن الخليل الذي تنضو مودته نضو الخضاب لمحقوق بتصريم[51]

أما تأثير تعاليم الإسلام في حكمه فتبدو فيما دعا إليه الإسلام من إحسان ومكارم أخلاق، والبعد عن الشر وإذاية الناس ـ وإن لم يطبق هذا المبدأ في حياته ـ وذلك قوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان[52]

الخصائص الفنية واللغوية:

قلنا إن الشعراء في العصر الإسلامي ينظمون في الأغراض التي كانت في العصر الجاهلي، لكن هذا النهج لم يمنع ظهور تأثير تعاليم الإسلام في معانيهم ولغتهم. وهذا التأثير بلغ أوجه عند بعض الشعراء، بل منهم من توقف عن نظم الشعر وانصرف لتدبر معاني كتاب الله، ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة العامري الذي كان خير شاعر لقومه في الجاهلية، يمدحهم ويرثيهم، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم. ذكر ابن سلام أن عمر كتب إلى عامله «أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام، فقال الأغلب:

أرجزا سألت أم قصيدا؟ فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران»[53].

هذا الموقف من لبيد يبين الأثر العميق الذي أحدثته معاني القرآن وبيانه السامي في الشعراء والبلغاء والفصحاء. ولبيد من فحول الجاهليين ومن أصحاب المعلقات، وتوقفه عن النظم ليس شيئاً هيناً، لاسيما أنه يذكر السبب،

---

(50) شعره: 32 ـ 33.

(51) نفسه: 55.

(52) شعره: 61.

(53) طبقات فحول الشعراء: 1/ 135.

وهو وجود البديل الذي هو أجود وأفضل من الشعر، أما عبد الرحمن الذي نشأ في بيئة إسلامية تحث على الفضائل ومكارم الأخلاق، ورأى موقف أبيه في الدفاع عن هذه الدعوة، فإنه لم يتأثر كثيراً بهذه التعاليم، إذ نجد أشعاره تغلب عليها المضامين الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، فهو يفتخر بالأنساب والآباء بدل الافتخار بتقوى الله. وهجاؤه فيه إقذاع ربما فاق فيه أشعار بعض الجاهليين كقوله:

إن اللعن أبوك فارم عظامه إن يرم ترم مخلجاً مجنوناً(54)

وكذلك تضمن غزله معاني الفحش الصريح:

سائلاً مية هل نبهتها.. (لبيتان)

بينما المعاني التي تظهر أثر تعاليم الإسلام في شعره لا نجد منها إلا قوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها.. (البيت)

وكذا المعاني التي افتخر فيها بنصرة قومه للرسول الله ﷺ؛ وربما تكون هذه المعاني قد أخذت المنحى الجاهلي في عمقها، لأن التركيز على قومه بدل تعميم القول على جميع المسلمين الذين قاموا بهذا الدور يوحي بهذا الظن، لاسيما أنه يستثني الآخرين في شعره، كقوله:

وما فينا غريب من سوانا نؤم إلى النبوة كالجمال

وقد صاغ هذه المضامين في قالب فني كان شائعاً شيوعاً كبيراً في الشعر الجاهلي والإسلامي، وهو فن التشبيه. لقد أبرز معانيه في هذا اللون من البيان بطريقة فنية بارعة، وقد رأينا أبياتاً كثيرة أظهر فيها هذه البراعة كالمقطوعة التي وصف فيها الخيل، والأبيات التي تغزل فيها برملة. كما عبر بواسطة التشبيه عن معان طريفة تضمنت حكماً بالغة كقوله:

ترى المرء مخلوقاً وللعين حظها وليس بأحناء الأمور بخابر
فذاك كماء البحر لست مسيغَهُ ويعجب منه ساجياً كل ناظر

---

(54) شعره: 63.

وتلقى الأصيل الفاضل الرأي جسمه إذا ما مشى في القوم ليس بقاهر
فذاك كجسم رث من طول ضيعه على حد مفتوق الغرارين باتر[55]

واستطاع أن يصور به اضطراباته النفسية المتأججة بهذه الصورة البارعة:

كأن فؤادي في مخالب طائر إذا ذكرتك النفس شد بها قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم عليَّ فما تزداد طولاً ولا عرضاً[56]

أو يبدع مثل هذه الصورة التي يصف فيها السحاب المتدلي:

كأن السحاب دوين السماء نعام تعلق بالأرجل[57]

أما جزالة اللغة وسلامتها من الحوشي والغريب والشاذ فهي ظاهرة متميزة في أشعاره. وأبوه حينما تعهد شعره بالصقل والتهذيب قد راعى هذا الجانب اللغوي، لأن اللغة وعاء للمعاني، ولهذا السبب جاء شعره سليماً ومحكماً وجزلاً في لغته، وأصبح حجة يستشهد به العلماء لتأكيد ظاهرة لغوية أو سياق شائع في التراكيب السليمة. ذكر ابن جني قوله:

فتبازت فتبازخت لها.. (البيت)

لبيان معنى الغلبة والعلو في فعل: بزا بيزو[58] وفي باب «زيادة الحروف وحذفها» استشهد بقوله:

من يفعل الحسنات الله يشكرها.. (البيت)

وقال: أي فالله يشكرها[59].

وفي الإبدال على غير قياس أو رد قوله:

وكنت أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالفهر واجي

---

(55) نفسه: 23 ـ 24.

(56) نفسه: 29.

(57) نفسه: 34.

(58) الخصائص: 1/ 8.

(59) المصدر نفسه: 2/ 281.

أي واجيء[60].

وهذا الإبدال فتح بابا للبحث في إبدال الهمزة ياء، هل هو إبدال على حد التسهيل، أم هو إبدال محض؟ وقد نص ابن جني أن إبدالها هنا محض، لأن إبدال التسهيل تكون الهمزة فيه كأنها موجودة.

إن شعر عبد الرحمن يمثل مرحلة من مراحل التحول التي طرأت على الشعر العربي في المعاني والأغراض والصياغة بحكم التحول الناتج عن التغيير في العقيدة والعادات والمفاهيم التي كانت سائدة في المجتمع قبل مجيء الإسلام. كما يبرز مدى تأثر الشعراء بتعاليم الإسلام وصياغتها في أشعارهم، حيث كان هذا التأثر متفاوتاً بين شاعر وآخر. وعبد الرحمن كان يمثل الفئة التي لم تبرز تعاليم الإسلام في أشعارها بشكل قوي وبارز. كذلك يبرز شعره في جوانب منه مرحلة الصراع على الخلافة واستيلاء بني أمية على مقاليد الأمور، وما هجاؤه لأحد أفراد الأسرة الحاكمة وهو عبد الرحمن بن الحكم إلا صورة لهذا الصراع، وكذلك مهاجمته معاوية عن طريق الغزل بابنته رملة، وقوله فيه:

ألا أبلغ معاوية بن حرب فقد أبلغتم الحنق الصدورا[61]

بل كان يتوعد هؤلاء الحكم بتتبع مخازيهم ومثالبهم ليكشف صغارهم للناس:

صار العزيز ذليلاً، والذليل له عز، وصار فروع الناس أذنابا

إني لملتمس حتى تبين لي فيكم متى كنتم للناس أربابا[62]

كل هذا يبين قوة الصراع بين الأنصار وبين الحكام من بني أمية ومن والاهم. وإذا كان هؤلاء الحكام لهم قرابة مع الصحابي الجليل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، فإنه عرف كيف يسله منهم كما تسل الشعرة من العجين بقوله:

---

(60) المصدر نفسه: 3/ 152. والبيت من قصيدة جيمية، مطلعها:

وأما قولك: الخلفاء منا فهم منعوا وريدك من وداج

(61) شعره: 26.

(62) نفسه: 15.

عـثـمـان عـمـكـم ولـسـتـم مـثـلـه وبـنـو أمـيـة مـنـكـم كـالآمـر

وهذا العداء ناشيء من عدة أمور، منها تسلط بني أمية على الحكم بالقهر والقوة والدسائس؛ وبرغم هذا التسلط فإنهم لم يحاولوا نشر العدل والمساواة بين الناس، فالخليفة معاوية حينما أمر واليه على المدينة أن يجلد ابن حسان وعبد الرحمن بن الحكم حينما أفحشا في الهجاء، فإن الوالي الذي طبق الحد هو مروان بن الحكم[63] أخو عبد الرحمن بن الحكم، فقد جلد ابن حسان مئة جلدة ولم يجلد أخاه، وهذا ما جعل ابن حسان يغتاظ معاتباً النعمان بن بشير الأنصاري لأنه لم يقف بجانبه، وفي ذلك يقول:

يـوم أيـقـنـت أن سـاقـي رضـت وأتـاكـم بـذاكـم الـركـبـان[64]

هذه المواقف وغيرها من شأنها أن تؤجج الصراع بين الحكام والمحكومين، وأن يكون الشعر هو الوثيقة الأدبية والتاريخية والاجتماعية التي تصوره كما رأينا في شعر عبد الرحمن.

المصادر والمراجع

1 ـ **أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني، بعناية السيد محمد رشيد رضا. دار المعرفة 78.

2 ـ **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر. ط2.

3 ـ **رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة**. أبو القاسم محمد الشريف السبتي. تحقيق الدكتور محمد الحجوي. ط1، 1997.

4 ـ **السيرة النبوية**، لابن هشام. تحقيق المجموعة. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(63) كان معاوية قد أمر واليه على المدينة وهو سعيد بن العاص بجلد الشاعرين، فكره أن يجلد ابن عمه، وابن حسان الذي كان قد مدح آل سعيد بن العاص بقوله:

أعـفـاء تـحـسـبـهـم لـلـحـيـا ء مـرضـى تـطـاول أسـقـامـهـا

وحينما ولي المدينة في السنة الموالية مروان بن الحكم طبق الحد على ابن حسان وحده.

(64) شعره: 56.

5 ـ **شعر عبد الرحمن بن حسان الأنصاري**، جمع وتحقيق الدكتور سامي مكي العاني. مطبعة المعارف. بغداد 71.

6 ـ **طبقات فحول الشعراء**، محمد بن سلام الجمحي. تحقيق محمود محمد شاكر. ط1، 74.

7 ـ **العصر الإسلامي**، الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ط4.

8 ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**. ابن رشيق القيرواني. تحقيق الدكتور محمد قرقزان. ط1، دار المعارف. بيروت.

9 ـ **الكامل**، أبو العباس المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي.

10 ـ **الموشح**، للمرزباني. تحقيق علي محمد البجاوي دار الفكر العربي.